يوحنا المعمدان

❋✚❋

جاء "أعظم مواليد النساء" يُهيِّئ الطريق أمام خالقه الذي تجسَّد في ملء الزمان. جاء مَنْ هو "أعظم من نبيّ" ليختم الحقبة التي فيها كلَّمنا الله بالأنبياء ويبشِّر بحقبة جديدة عجيبة يُكلِّمنا فيها الله في ابنه (انظر: عب ١: ١-٢). هذه المهمة جليلة القدر أكملها يوحنا المعمدان على أكمل وجه؛ أكملها ليس فقط بكرازته، بل أيضًا بحياته. فلنا حتى في ما يبدو أضعف لحظات حياته وأضعف كلمات قد فاه بها أعماقٌ وآفاقٌ، درسٌ وعِبْرة.

هذا هو حمل الله!

قدَّم يوحنا المعمدان أوَّل الإعلانات للجموع التي كانت تحيط به. كان يوحنا ابن كاهن، ويدرك تمامًا دور الحَمَل في أسفار العهد القديم، بدءًا من قُربان هابيل (تك ٤)، مرورًا بسؤال إسحاق لأبيه عن خروف المحرقة (تك ٢٢)، وبعد ذلك خروف الفصح (خر ١٢)، وكذلك حَمَل المحرقة الصباحية والمسائية (خر ٢٩). ومن هذه الخلفيَّة تحدَّث المعمدان عن المسيح باعتباره «حَمَلَ اللهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيئَةَ الْعَالَمِ» (يو ١: ٢٩).

عندما سألوه: «مَنْ أنت؟» لم يقُل عن نفسه: "أَنَا هو"، بل «لَسْتُ أَنَا» (يو ١: ٢١)، والمرة الوحيدة التي أشار فيها إلى نفسه قال: «أَنَا صَوْتٌ» (يو ١: ٢٣)، والصوت لا يُرى ولا يشْغل حيزًا من الزمان أو المكان. لم يرَ في نفسه أكثر من مجرد صوتٍ لصارخٍ في البرية، لكن كانت نظرة الرب ليوحنا عظيمة جدًّا؛ فاليدُ التي استحت أن تَحُلَّ سُيورَ حذائِه أعطاها أن تُوضَع فوق رأسِه.

أَنْتَ هُوَ الآتِي أَمْ نَنْتَظِرُ آخَرَ؟

وقف المعمدان في مِنبره المنحوت في الصخر، ممتلئةً نفسُه بكل يقينيَّة الإيمان. لم

يكن في صدره أي أثر للرِّيبة أو الشّك. لقد أشار إلى المسيح بكل يقين وثقة قائلًا: «هذَا هُوَ» (يو ١: ٣٠). لكن يا للفارق العظيم بين هذا الإعلان، وبين تلك الرسالة الأليمة: «أَنْتَ هُوَ ... أَمْ ...؟»! لقد أرسل تلميذيه إلى الرب يسوع قائلًا: «أَنْتَ هُوَ الآتِي أَمْ نَنْتَظِرُ آخَرَ؟» (مت ١١: ٣).

عندما أُودِع المعمدان في يأس ذلك السجن المُظلِم، توقَّع أن يتدخل السَّيد لإنقاذه بطريقة ما. ألم يقرِّر صراحةً في تلك العظة الأولى في الناصرة، والتي سمع عنها، أنَّ ضمن برنامجه الإلهي، الذي لأجله مُسِح، هو أن يفتح أبواب السجون، وينادي للمأسورين بالإطلاق (انظر: لو ٤: ١٨). لكن مرَّت الأسابيع والشهور، ولم تأتِ الإغاثة. لم يستطع قلب يوحنا أنْ يجد تعليلًا لذلك، وخشِيَ أن يكون قد أخطأ في التحقق من شخصية المسيح. كان المعمدان ينتظر أعمالًا عظيمة وخطوات تحريرية جبارة يقوم بها مسيَّا، فتتم على يديه المواعيد العُظمى التي وعد الله بها الشعب، فلما قُبِضَ عليه وأُلقِيَ في السِّجن، بدأت الشكوك تدبُّ في قلبه.

لقد كان المعمدان ابن صحراء، كان طليقًا يتمتع بالحرية. إذا ما نام بالليل أو عمل في النهار، امتدت السماء فوقه بمساحاتها اللانهائية. وعندما وجد نفسه مُكبَّلًا بالأغلال، محبوسًا في غُرفة مُظلمة، سادت عليه الكآبة والحزن وانقباض النفس. تَعطَّش إلى الحرية تَعَطُّش العصفور المحبوس، وتاقت نفسه إلى أن يتحرك دون أن يسمع صليل القيود، وأن يشرب من مياه الأردن الصافية، وأن يستنشق نسيم الصباح، وأن يتطلَّع إلى فضاء الطبيعة اللانهائي. وهل نجد صعوبة في أن نفهم كيف كان لقيوده رد فعل على حالته النفسية؟ وكيف كان لوهنه هذا تأثير على نفسه؟

إن تركيبنا الجسماني مُتناه في الدِّقَّة، ويا لها من تعزية لا حدَّ لها أن نعرف أن الله يُدرك كيف تضطرب طبيعتنا بسهولة! إنَّه يعزو شكوكنا ومخاوفنا إلى مصادرها الحقيقية. إنه يعرف أن القوس قد انثنى إلى درجة قريبة من الانكسار، وأن الحَبْل قد شُدَّ إلى أقصى درجات الاحتمال. إنه لا يُوبِّخ خُدَّامه عندما يرتمون تحت رتمة، طالبين لأنفسهم الموت، بل يُرسِل إليهم طعامًا ويُمتِّعهم بنوم عميق (انظر: ١مل ١٩: ٥-٨)؛ وعندما يُرسِلون من سجونهم متسائلين: «أنت هو؟»، لا تُسمع منه كلمة توبيخ، بل

كلمات تشجيع (انظر: مت ١١: ٧-١٤).

كان يوحنا قد «سَمِعَ فِي السِّجْنِ بِأَعْمَالِ الْمَسِيحِ» (مت ١١: ٢)، لذلك أرسل اثنين من تلاميذه، قائلًا لهما: اذهبا واسألاه عمَّا إذا كان علينا أن ننتظر آخر. لقد كانت ليوحنا معرفة جزئية عن المسيح. فتساءل في نفسه هل هذا هو كل ما فعل؟! أَلَا يُستَخدم الرفش ليُنقِّي الحنطة، والنار ليحرق؟ لقد كان هذا ما يتوقَّعه، وما تعلَّم أن يتوقَّعه من الأنبياء[1]. لم يكن يتوقَّع أن يأتي المسيح بهذا الأسلوب الهادئ، وهكذا وقع في بالوعة الشكّ هذه، لأنه عجز عن أن يُدرك تمام الإدراك شخصيَّة المسيح. لذلك أرسل اثنين من تلاميذه، قائلًا لهما: اذهبا واسألاه عمَّا إذا كُنَّا ننتظر آخر، من طراز مختلف؛ فيكون كالنار والزلزلة والعاصفة.

وقف التلميذان وسط الجماهير إذ كان طابور المرضى والمجانين البائسين يمرُّون أمام السيد، وينطلقون وقد نالوا الشفاء والخلاص؛ حتى الموتى كانوا يُقامون. وإذ انتهى السيد من شفاء الجميع التفت إليهما، وبنغمة رقيقة عذبة قال لهما :«اذْهَبَا وَأَخْبِرَا يُوحَنَّا بِمَا تَسْمَعَانِ وَتَنْظُرَانِ: اَلْعُمْيُ يُبْصِرُونَ، وَالْعُرْجُ يَمْشُونَ، وَالْبُرْصُ يُطَهَّرُونَ، وَالصُّمُّ يَسْمَعُونَ، وَالْمَوْتَى يَقُومُونَ، وَالْمَسَاكِينُ يُبَشَّرُونَ» (مت ١١: ٤- ٥). لقد كانت إجابته إجابة غير مباشرة. لم يقل لهما: أنا هو الذي كان ينبغي أن يأتي، ولا داعي لانتظار آخر. فلو أنه قال هذا لكان قد اقتنع عقل يوحنا لا قلبه.

كانت الإجابة غامضة. يقينًا أنه إن استطاع أن يفعل كل هذا لأمكنه أن يفعل ما هو أكثر. إن القوة التي شفت المرضى والعُرْج والعُمي وأخرجت الشياطين، تستطيع بلا شك إنقاذ يوحنا. هذا جعل قلبه أكثر رغبة في أن يسمع مظاهر القوة هذه. كان يجب أن يتعلم بأن الرب شفى هؤلاء المساكين لأن طبيعتهم لم يكن ممكنًا أن تحتمل حصادًا أوفر، فنفوسهم لم تكن تحتمل الحرث العميق الذي لا يُستخدَم إلَّا في التربة العميقة. أمَّا يوحنا

---

(١) تكلَّمت نبوات العهد القديم من جهة عمل المسيَّا الموعود به من الله في خطّيْن، أحد هذين الخطيْن يتكلَّم عن مجيء المسيَّا في جلال مجده، والخط الآخر يتكلَّم عن مسيَّا مُتألِّم مُتَّضع يموت مصلوبًا كأنه مهزوم من ضعف. نراه في مزمور ٢٤ «مَلك المجد» وأمامه تُفتَح الأبواب الدهريَّة، هو عيْنه الذي نراه في مزمور ٢٢ صارخًا قائلًا: «إِلهِي، إِلهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟ ... عَارٌ عِنْدَ الْبَشَرِ وَمُحْتَقَرُ الشَّعْبِ ... لَا تَتَبَاعَدْ عَنِّي ... أَسْرِعْ إِلَى نُصْرَتِي» (مز ٢٢: ١؛٦؛ ١١؛ ١٩).

فلأن طبيعته كانت قادرة أن تُعطي أعظم الثمار في فلاحة الله، فقد تُرِك منتظرًا، فبينما نال الآخرون البركة ومضوا إلى حال سبيلهم، كان باقيًا ليوحنا ثلاثة أشهر فقط، وفيها كان يجب أن يعمل الصبر والإيمان عمله التام.

ختم الرب كلماته للتلميذَين «وَطُوبَى لِمَنْ لَا يَعْثُرُ فِيَّ» (مت١١: ٦). لقد وضع الرب في متناول المعمدان بركة أولئك الذين آمنوا ولم يروا، الذين يعرفون كيف ينتظرون الرب، والذين يثقون فيما يعرفونه عن قلبه وإن لم يستطيعوا أن يدركوا كل تصرفاته. هذه هي بركة مَنْ لا يعثرون في غوامض تصرفات الله في حياتهم.

أَعِدُّوا فِي الْبَرِّيَّةِ طَرِيقَ الرَّبِّ

جاءت الآية في الأناجيل الإيزائية هكذا: «صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ: "أَعِدُّوا طَرِيقَ الرَّبِّ، اصْنَعُوا سُبُلَهُ مُسْتَقِيمَةً"» (مر ١: ٣) حيث تمَّ اقتباس الآية حسب الترجمة السبعينية من (إش ٤٠: ٣). وقد يُفهَم منها أن صوت المعمدان، لإعلان مجيء الرب، كان في بادية يهوذا[٢]. فهل هو صوت يصرخ في الصحراء، لا يسمعه أحد؟ أم أنه صوت يستدعي تهيئة طريق في الصحراء حيث يصعب السير؟

النص العبري يقول: «صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ: "أَعِدُّوا طَرِيقَ الرَّبِّ. قَوِّمُوا فِي الْقَفْرِ سَبِيلًا لإِلَهِنَا"» (إش ٤٠: ٣). وبالتالي فإنّ السبعينية أسقطت "فِي الْقَفْرِ" على اعتبار أنه تكرار لعبارة "في البرية". وعند قراءة إشعياء ٤٠، يتَّضح أنَّه يتكلَّم عن مواساة إسرائيل، فيسجِّل إشعياء كلمات تعزية سيحتاج إليها الشعب في وقت لاحق: حينما سيكون السبي في بابل على وشك الانتهاء، والأمر يحتاج لتمهيد الطريق بين بابل وأورشليم حتى يتمكَّنوا من العودة إلى أورشليم[٣].

---

(٢) الكلام هنا ليس عن دعوة المعمدان والتي هي بكل تأكيد في برية يهوذا (انظر مت٣: ١)، لكن عن صوت المعمدان وكرازته.

(٣) كان الحكام الشرقيون يرسلون في أغلب الاحيان رجالًا أمامهم ليعدُّوا الطريق بإزالة الصخور الضخمة، حتى أنهم كانوا ينشئون الممرات ويمهِّدون الأماكن المرتفعة. وفي حالة اليهود العائدين من السبي سيكون كما لو أن الرب نفسه يسير في المقدمة ويُخلي الطريق من أية عوائق. فهؤلاء شعب يهوه، وإتمام وعده بإعادتهم الى موطنهم سيجعل مجده يتجلى أمام كل الأمم.

إذا أخذنا في الاعتبار علامات الترقيم طبقًا للنص الماسوري(٤)، فإن قراءة النص تكون على النحو التالي: «صوتُ صارخٍ: في البرية أعدوا طريقًا للرب» وهذا يُغيِّر قليلًا من معنى الجملة. فإنّ كلمة בַּמִּדְבָּר (بمدبار) أي "في البرية" لا تعني المكان الذي يُرفَع منه الصوت، ولكن المكان الذي يجب أن يُعدّ فيه طريق الرب. ومن ناحية أخرى، فإنَّه من الشائع في النص العبري تكرار عبارة مرتَين باستخدام كلمات مختلفة. ولذلك في إشعياء (إش ٤٠: ٣) يُقترح ترتيبٌ مختلفٌ: صَوْتُ صَارِخٍ: «**أَعِدُّوا** في الْبَرِّيَّةِ طَرِيقَ الرَّبِّ. **قَوِّمُوا** فِي الْقَفْرِ سَبِيلًا لإِلَهِنَا» (إش٤٠: ٣). وهكذا نرى أنَّ الكلمة التي لم يتم اقتباسها في السبعينية وكذلك علامات الترقيم غير الموجودة في العبرية والسبعينية وأيضًا اليونانية لغة العهد الجديد يمكن أن تُفسِح المجال للعديد من المعاني.

كلمة "برية" بالطبع هي مكان جغرافي محدَّد، لكن كلمة "البرية" المذكورة في النصوص الإيزائية (مت ٣: ٣؛ مر ١: ٣؛ لو ٣: ٤) تعني أكثر من ذلك. فإذا أخذنا النص في نسخته اليونانية، نجد أن كلمة "صحراء ἔρημος " لها معانٍ عديدة. ويمكن أن ترتبط هذه الكلمة بشخص ما، فتصفه بأنه "محروم، مُهْمَل، وحيد، أو متروك"، أو حتى "امرأة أهملها زوجها" كما قيل «افْرَحِي أَيَّتُهَا الْعَاقِرُ الَّتِي لَمْ تَلِدْ. اِهْتِفِي وَاصْرُخِي أَيَّتُهَا الَّتِي لَمْ تَتَمَخَّضْ، فَإِنَّ أَوْلاَدَ الْمُوحِشَةِ (أولاد الزوجة المهجورة τὰ τέκνα τῆς ἐρήμου) أَكْثَرُ مِنَ الَّتِي لَهَا زَوْجٌ». لذلك يصرخ صوت، هذا الصوت يُسمَع في هذه الأماكن غير المأهولة، هذه الأماكن الصحراوية، أعني الشخص المنبوذ والمتروك. هذا الصوت يصرخ: "هيئ الطريق للآتي".

لكل الذين تاهوا في صحراء العزلة وجميع الذين يسكنون الأماكن القاحلة هذه، يصرخ صوت: هناك طريق واضح، هو الذي قال عن نفسه: «أَنا هُوَ الطَّرِيقُ» (يو ١٤: ٦). في مجتمع لم يعد يعرف إلى أين يتَّجه، تمزِّقه المشاعر الغامضة والظلم والعنف وغياب

(٤) أضاف النص الماسوري حروف العلة على النص الأصلي لتسهيل القراءة، وأضاف عددًا معينًا من العلامات الصغيرة للترتيل، فالآية التي نحن بصددها جاءت هكذا **קֹ֣ול קֹורֵ֔א** בַּמִּדְבָּ֕ר פַּנּ֖וּ דֶּ֣רֶךְ יְהוָ֑ה יַשְּׁרוּ֙ בָּעֲרָבָ֔ה מְסִלָּ֖ה לֵאלֹהֵֽינוּ (إش٤٠: ٣)، نلاحظ أنَّه يوجد على الحرف الأخير من كلمة "קוֹרֵ֔א" (صارخ) علامة صغيرة (:) تشير إلى نهاية مجموعة من الكلمات، أي نهاية مقطع. مما يعني أن كلمة "קוֹרֵ֔א" (صارخ) تُنهي هذه المجموعة من الكلمات؛ وعليه فالمقطع الأول من الآية "קֹול קוֹרֵ֔א صوتُ صارخٍ" بعده وقفة صغيرة، وكلمة "في البرية" تكون تابعة لما يليها.

الفكر والمعنى، تبدو حياتنا أحيانًا كالبادية. فيعاني المرء من أوقات الصحراء هذه ومن صعوبة الطريق! كيف يمكن للإنجيل أن يتخلَّل الحياة ويُعطيها معنى؟ هل يخرج الإنجيل صارخًا في الفيافي فلا يسمعه أحد؟ أم أنه جاء ليصرخ أن شيئًا ما آتٍ في هذه الصحراء؟ صوت يستدعي تهيئة طريق في الصحراء حيث يصعب السير. هربت هاجر وهي حُبلى إلى الصحراء بسبب غَيْرة ساراي، لكن هناك أعادها الرب وسمع لمذلَّتها وأنجبت إسماعيل الذي يعني اسمه "الله يسمع" (تك ١٦: ١١). فإن كانت الصحراء مكانًا للجفاف واليأس، ومكانًا للتجربة، فهي مكان ينضم فيه الرب لمَنْ يدعونه.

صوت يصرخ في صحارينا، عندما نشعر بالوحدة و التخلّي، فيتجلَّى حضور الرب. هذا هو المكان الذي يكرز فيه يوحنا المعمدان. إن كان إشعياء في زمانه يُعلِن عن الحرية، والعودة من المَنْفى، وإعادة بناء مستقبل جديد، فبشارة يوحنا المعمدان تُعلِن عن "الآتي"، الرب يسوع المسيح.

****

***** بقية المقال: ادخل إلى العمق: السهر الروحي (المنشور صفحة ٢٨) **********

ختام:

يُنبِّهنا الحكيم في سفر الأمثال قائلًا: «**إِلَى مَتَى تَنَامُ أَيُّهَا الْكَسْلاَنُ؟**» (أم ٦: ٩)، وأيضًا يقول الحكيم: «**مَنْ يَنَامُ** فِي الْحَصَادِ **فَهُوَ ابْنٌ مُخْزٍ**» (أم ١٠: ٥). إذًا فهي ساعة لنستيقظ فيها، كقول معلّمنا بولس الرسول: «**اسْتَيْقِظْ أَيُّهَا النَّائِمُ** وَقُمْ مِنَ الأَمْوَاتِ فَيُضِيءَ لَكَ الْمَسِيحُ» (أف ٥: ١٤)، فالروح يدعونا للنهوض، كما أيقظ النُواتيَّة يونان قديمًا: «**مَا لَكَ نَائِمًا؟**» (يون ١: ٦). فعلينا أن ننهض من رقادنا، ونشُدُّ أحقاءنا، ونستعدَّ للقاء العريس، بالسهر والجهاد والصلاة، وحفظ أنفسنا بلا دنس في العالم؛ مستَندين على نعمة روح الله القدوس، وعلى إرادة التوبة والانسحاق عندنا، حينئذ سوف نَستحقُّ - بنعمته - أن نلقاه بوجوه لامعة مضيئة، ونذهب في معيَّته لنَسعَد بنصيبنا مع جمهور المجاهدين والساهرين والمخلَّصين في ملكوته.